الرضا والواقع

obeikandl.com

obeikandl.com

الرضا والواقع

مَاذَا نَعْنِي بهذا العُنوان، الذي يُثِيرُ كثيراً من التَّسَاؤُلاتِ في واقعٍ يَئِنُّ الإنسانُ فيهِ من الظُّلْمِ والبَغْي، والعُدْوَانِ والتسلُّط..

في عَصْرٍ يُعْبَدُ فيه الهَوَى، وتَسُودُ الأَنَانِيَّةُ، وَتَتَمَزَّقُ الرَّوابط ؟

هَلْ يَرْضَى الإنْسَانُ بِمَا هُوَ وَاقِع ؟

أَلاَ يكونُ **الرِّضَا** بِهَذا الوَاقع مَوَاتٌ للإنْسَانِ، وَقَتْلٌ لِمَوَاهِبِهِ، وَتَشْجِيعٌ للعُدْوَانِ والفَسَادِ في جميعِ صُوَرِهِ ؟

وَلابُدَّ للإنسانِ أَنْ يَتَّسِقَ مَع الكَوْنِ الذي يَعيشُ فيه، في القِيَامِ بِمَا خُلِقَ له، بِإِرَادَةٍ تَتَّفِقُ مَع الفِطْرَةِ، ولا تُنَاقِضُهَا؛ حتَّى يَتَّسِقَ مَع الكَوْنِ كُلِّهِ في التَّسْبِيحِ بِحَمْدِ رَبِّه.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾.[1]

وَلِكي يَتَّسِقَ الإنسانُ مَع فِطْرَةِ الكَوْنِ بِإِرَادَتِهِ، لابُدَّ لَهُ من العَمَلِ الهَادِفِ، الذي يَتَّجِهُ إلى غَايَةٍ رَاشِدَةٍ، تَتَعَاوَنُ الأُمَّةُ كُلُّهَا عَلى تَحْقِيقِهَا في انْسِجَامٍ لاَ تَنَاقُضَ فِيه وَلاَ تَضَارُب.

فإنَّ أَخْطَرَ مَا يُصِيبُ أُمَّةً أَنْ تَتَنَاقَضَ أَهْدَافُهَا، وَأَنْ تَتَصَارَعَ وَسَائِلُهَا.

فإنَّ الأَجْيَالَ التي تَنْشَأُ في مُنَاخِ التَّضَارُبِ وَالتَّنَاقُضِ سَتُصَابُ بِأَخْطَرِ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ التي تدَمِّرُ وَلاَ تُعَمِّرُ، وَتَسُوقُ الفَنَاءَ إلى مَا شُيِّدَ مِنْ بِنَاء.

---

(1) الإسراء: ٤٤.

وَلَيْسَ الهَدَفُ لأَيِّ أُمَّةٍ شَعَارَاتٍ تَظْهَرُ ثُمَّ تَغِيبُ، وَتَبْدُو ثُمَّ تَخْتَفِي.

إنَّ الأَهْدَافَ وَالغَايَاتِ ثَابِتَةٌ بَاقِيَةٌ، وَإنْ تَطَوَّرَتِ الوَسَائِلُ أَوْ تَغَيَّرَتْ.

وَمَعَ ثَبَاتِ الغَايَاتِ تَثْبُتُ قِيَمُ الإنْسَانِ وَصِفَاتُه، مِن: جَدٍّ وَعَمَلٍ، وَصِدْقٍ وَتَعَاوُنٍ، وَبرٍّ وَعَدْلٍ، وَحُبٍّ وَوَفَاءٍ.

هَذِهِ القِيَمُ ـ التي تُوصَفُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ ـ لاَ غِنَى لأُمَّةٍ عَنْهَا، وَإنْ تَفَاوَتَتْ في القَدْرِ الذي تَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهَا، وَلَكنَّها ـ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ ـ ضروراتٌ لِتُمَيِّز جِنْسَ الإنْسانِ، وَتُحَقِّقَ مَا فُضِّل بِهِ وَكُرِّمْ.

والذين يَظُنُّونَ أَنَّ تَفَوقَ الأُمَمِ نَاشِئٌ عَن تَفَوّقِهَا في مَجَالاتٍ بَعِيدةٍ عَنْ صِفَاتِ الإنْسَانِ يُخْطِئُونَ؛ لأن الأَصْلَ في أيِّ حَضَارَةٍ تُقَامُ هُوَ (الإنْسَانُ) بِخَصَائِصِهِ، وَعِلْمِهِ، وَعَمَلِهِ، وَاتِّسَاقِهِ مَعَ فِطْرَةِ الكَوْنِ، دُونَ تَعَارُضٍ أَوْ تَنَاقُض.

وَعِندئذٍ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

بَيْنَ **الرِّضَا** عَن اللّه..

وَالرِّضَا عَن الوَاقِعِ، الذي هُوَ مِن صُنْعِ الإنْسَانِ.

فإنَّ **الرِّضَا** عَن اللّه لازِمٌ في جميعِ الأَحْوَال.

والرِّضَا عَن الوَاقِعِ مُقَيَّدٌ بِضَوَابِطَ وَحُدُودٍ لِمَصْلَحَةِ الإنسان، تُعِينُ على تَحْسِينِ الوَاقِعِ، وَالوُصُولِ بِهِ إلى مَا هُو أَفْضَلُ وَأَنْفَع، وَلَوْ تَفَوَّقْنَا عَلى كَافَّةِ الأُمَمِ.

وَتَحْسِينِ الوَاقِعِ يَسْتلزمُ ـ دَائِمَاً ـ **الرِّضَا** عَنِ اللّه.

فَإِنَّ **الرِّضَا** عَن الله مَعْنَاهُ: عَدَمُ الرُّكُونِ إلى يَأْسٍ أَوْ قُنُوطٍ، بَلْ التَّحَرُّك وَالانْطِلاق بأَمَلٍ وَتَّابٍ، وَتَوْبَةٍ دَائِمَةٍ نَصُوحٍ، وَإِقْلاعٍ عَن الآثَامِ وَالمَعَاصِي والذُّنُوبِ، التي تُدَمِّرُ الأُمَمَ، وَتُهْلِك الشُّعُوب.

الرِّضَا عَن الله مَعْنَاهُ: عَدَمُ **الرِّضَا** عَن النَّفْسِ، وَاتِّهَامُهَا ـ دَائِماً ـ بالقُصُورِ وَالتَّقْصِير.

الرِّضَا عَن الله أَصْلٌ أَصِيلٌ في تَجْدِيدِ الأَمَلِ، وَتَحْسِينِ العَمَلِ، وَتَجَاوُزِ العَوَائِقِ التي تَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَا هُو أَفْضَل.

وَسُنَنُ الله تُوَفِّي لِكُلِّ عَامِلٍ عَمَلَهُ، فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ

إنَّ الله لا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً.

وَلاَ بُدَّ مِن إِرَادَةٍ صَادِقَةٍ في عَمَلِ دُنْيَانَا وَأُخْرَانَا.

وَلاَ يَضِيعُ عَمَلٌ لَهَذِهِ أَوْ تِلْكَ.

وَالنَّتَائِجُ ـ دَائِماً ـ مُرْتَبِطَةٌ بِالأَعْمَالِ والغَايَات.

وَسُنَنُ اللهِ لاَ تُجَامِلُ وَلاَ تُحَابِي، وَلاَ تَتَبَدَّلُ وَلاَ تَتَحَوَّلُ.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾.[1]

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ ﴾.[2]

---

(1) الزلزلة: ٧، ٨.

(2) هود: ١٥.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾.[1]

فالرِّضَا عَنِ اللهِ تَتَجَدَّدُ بِهِ الحَيَاةُ، وَلاَ يَقَعُ فِي سَاحَتِهَا ـ مَعَ الآلامِ وَالمَتَاعِبِ وَالمَصَاعِبِ ـ يَأْسٌ أَوْ قُنُوطٌ.

تَاجِرٌ أُصِيبَ فِي تِجَارَتِهِ بِكَسَادٍ أَوْ بَوَارٍ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ على أَخْطَائِهِ، وَلاَ يَرْضَى عَمَّا وَقَعَ مِن خَطَأٍ مِنْهُ أَوْ تَجَاوُز.

وَلكنهُ يَرْضَى عَن رَبِّهِ، وَلاَ يَتَّهِمُ الأَقْدَارَ فِيمَا وَقَعَ مِن خَطَأٍ أَوْ تَجَاوُزٍ.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.[2]

يَرْضَى عَن رَبِّهِ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ؛ لأَنَّ اللهَ قَدْ يَسَّرَ لَهُ الأَسْبَابَ التي يَنْهَضُ بِهَا فِي غَيْرِ يَأْسٍ، وَيَعْمَلُ دُونَ تَوَقُّفٍ.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.[3]

الرِّضَا عَن اللهِ نُورٌ لاَ يَنْطَفِئُ أَبَداً، مَعَ صِدْقِ الإيمانِ وَاليَقِين.

وَبِذَا يَتَجَدَّدُ الأَمَلُ، وَتَأْتِي النتائجُ ـ بعَوْنِ اللهِ ـ بَارَّةً رَاشِدَةً.

وَالأَمَلُ ـ مَعَ اليقينِ ـ لَيْسَ شَيئاً مُؤَقَّتاً يَتَحَوَّلُ إلى قُنُوطٍ إِذَا أَبْطَأَ

---

(1) الإسراء: ١٩.

(2) الشورى: ٣٠.

(3) الشورى: ٢٥.

المطلوبُ، بَلْ هُوَ مُسْتَقِرٌّ اسْتِقْرَارَ اليَقِينِ في القَلْبِ، يَمْتَدُّ وَيَتَّسِعُ كُلَّمَا عَظُمَ الكَرْبُ أَوْ اشتَدّ.

وَتَأَمَّلْ عَمَلَ اليَقِينِ مَعَ مُؤْمِنٍ فَقَدَ ـ من البَلاَءِ ـ بَصَرَهُ، فَجَدَّدَ اليقينُ أَمَلَهُ، وَأَفْسَحَ **الرِّضَا** عَن الله رَجَاءَهُ، حيثُ قَالَ:

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.[1]

وَكَأَنِّي ـ وَاللهِ ـ أَرَى في مَنْطِقِ يَعْقُوب عليه السلام حَرَكَةَ النَّفْسِ، وَحَرَكَةَ الحِسِّ مَعَاً، في قَوْلِهِ: ﴿ ٱذْهَبُواْ ... فَتَحَسَّسُواْ .... وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ ﴾.

فَأَيُّ قُوَّةٍ يُمْكِنُ أَن تُقَابَلَ بِهَا أَحْدَاثُ الحياةِ مِثل هَذِهِ القُوَّة ؟

وَأَيُّ رَجَاءٍ يمكنُ أن تَسْتَقِيمَ مَعَهُ شئونُ الحياةِ بَعْدَ هذا الرَّجَاء ؟

بَلْ أَيُّ حَرَكَةٍ عَامِلَةٍ مُهَذَّبَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَنْبُعَ من نَفْسِ المُصَابِ، فَتَدْفَعه إلى عَمَلِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ، وَلا تَدَعه يَهْوِي صَرِيعَ الأَلَمِ وَاليَأْسِ، والانْقِبَاضِ وَالحَسْرَةِ، مِثْل مَا نَرَاهُ في دَلالَةِ هَذِهِ الآية، ومَا تَمَّ بِوَحْيِهَا من عَمَلٍ وَأَثَرٍ وَنَتِيجَةٍ ؟

لا أَخَالُ الذينَ يَتَحَدَّثُونَ عن ـ التَّوَاكُلِ ـ في ظِلِّ هَذا الشُّمُوخِ الفَذِّ للعَواطِفِ الهوج ـ إلاَّ قَوْمَاً طَلَبُوا الدِّينَ في جُثَثِ الموْتَى الذين كُتِبَتْ عَلى قُبُورِهِم إعلاناتٌ مَظْلُومَةٌ (مسلمون).

وَلَوْ طَلَبُوه في تُرْبَتِهِ الحقيقيةِ، وَأَخَذُوه مِن مَعِينِهِ الأَصِيل، لَوَجَدُوا

---

(1) يوسف: ٨٧.

أَنْفُسَهم أَمَامَ حَرَكَةٍ لاَ تَهْدَأ، وَإِزَاءَ فِطْرَةٍ رَاشِدَةٍ تَتَّخِذُ من تَعْمِيرِ الدُّنيا، واكْتِشَافِ مُكوّناتِها سَبيلاً إلى الخُشُوعِ في مِحْرَابِ الخَالِقِ، والتَّوَصُّلِ إلى جَنَّاتِهِ.

ووَجَدُوا أَنَّ الحَرَكَةَ ـ هُنَا ـ لَيْسَتْ لِغَرَضٍ مَحْدُودٍ، أَوْ رَغْبَةٍ طَارِئَةٍ، تَتَوَقَّفُ إِذَا تَحَقَّق الغَرَضُ، وَتَنْتَهي إِذَا انتَهَتْ الرَّغْبَةُ.

بَلْ هي ـ في الحَقِيقةِ ـ حَرَكَةُ الدَّوَامِ، وَدَوَامُ الحَرَكَةِ، مَوْصُولَةٌ باتِّصَالِ الخَلْقِ، مُتَّصِلَةٌ بِدَارِ الحَقِّ.

وَهَذِهِ الحَرَكَةُ الدَّائِبَةُ الموصُولةُ المُتَّصِلَةُ بالخَالِقِ، هي التي يَذْهَبُ بهَا الفَقْرُ؛ إِذْ هُوَ من شَهَوَاتِ النَّفْسِ، وَقَد اسْتَقَامَ أَمْرُهَا، وَطَابَ سَعْيُها.

وَيَخْتَفِي الجَهْلُ في مَجَالِ السَّعْي في كُلِّ سَبِيل؛ فَنَحْنُ نَرْغَبُ في العِلْمِ، وَنَطْلُبُهُ فَرْضاً، وَلَوْ في الصِّين.

وَنَبْذُله بَارِّينَ، لاَ طَامِعِينَ ولا مُغْتَصِبين.

وَلاَ مَجَالَ للمَرَضِ في أَرْضٍ وُئِدَ فِيهَا الفَقْرُ، وَشَاعَ العِلْمُ، والتَقَى النَّاسُ عَلى خَيْرٍ وَطُهْرٍ وَبِرٍّ.

وَتِلكَ المنغِّصَاتِ الثلاثة ـ التي جَلَبَهَا فَقْرُ النَّفْسِ ـ حُورِبَتْ في ظَاهِرِهَا، وَلَمْ تُقْتَلَعْ من جُذُورِهَا.

وَلَنْ تُقْتَلَعَ إلاَّ **بالرِّضَا** عن اللهِ، وَالأَخْذِ بالأَسْبَابِ كَمَا أَمَرَ اللهُ، فِي شَتَّى الْمَجَالاتِ.

***